

## مركزية النوافل في رسم حدود الشخصية المسلمة

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسانٍ  
إلى يوم الدين أما بعد:

فمما لا تخطئ العين في السلوك التربوي المعاصر التظير بشكلٍ غير مقصودٍ لثقافة **التزهيد في النوافل** انطلاقاً من فقه الأولويات، والذي من بنوته أنَّ العلم أفضَّل من العمل، وأنَّ النفع المتعدي أفضَّل من النفع الفاصل.

وهذا ليس بجادةٍ من السبيل؛ وذلك لأنَّ الأفضلية الواردة في النصوص تعني زيادة الفاضل على المفضول مع اشتراكهما في أصل الفضل، فالكلام يتوجه لمزيد العناية بالفاضل لمن تيسر له الانتظام فيه وليس عن ترك المفضول، فحين نقول: إنَّ أوراد العلم خيرٌ من أوراد العبادة فلا يُراد أنْ يُقبلُ الإنسان على أوراد العلم ويدبر عن أوراد العبادة، ولا يكون الترك التام إلا في مواطن استثنائية حين يحصل التعارض التام بين الأمرين، وعندئِذ يكون من الفقه في الدين أنْ تقدم ما قدمَ الله.

وسياسة الشريعة الجمعُ بين الأمرين مع تغليب الفاضل في العناية متى قامت أسبابه وتتوفرت معطياته، وقد تصبح الأفضلية للمفضول في الأصل إذا كان الوقت له، أو قامت الحاجة له، وذلك لأنَّ **الأفضل في كلِّ وقتٍ وحالٍ هو إثارة مرضاعة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه**، ولابن القيم رحمة الله تقريرٌ نفيسٌ لهذا المعنى ختمت به كتاب "أنيس المتعبد" فانظره إذا شئت.

وفي هذه المقالة الموجزة أذكر خمسةً من المعالم الهدادية التي تُبرز مركزية النوافل بما يعيدها في الأذهان إلى مرتبتها التي تستحق، وذلك كما يلي:

**أولاً: النوافل طريق إلى المقامات الفاضلة:**

ومن أبرز الأدلة على ذلك: ما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَ لِي وَلِيَا فَقَدْ آذَنَهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَنْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا أُفْرِضَتْ عَلَيْهِ، وَمَا يَرَالْ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ.." (١).

فترتب حُبُّ الله تعالى للعبد على النوافل؛ وذلك لأنَّ الفرضية قد يفعلها العبد توقياً من غضب الله وعقابه فيما لو ترك، أما النوافل فهو يفعلها حُبًّا لله فجوني بحُبِّ الله له.

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٥٠٢).

ولك أن تخيل أنك صليت الظهر فرضاً وسُنَّةً ثم نصبت قدميك وصلَّيت ركعتين أو أربعَ لشيءٍ إلا لحب الوقوف بين يدي الله تعالى، فالقيمة الإيمانية هنا لا تقاد بنوع الصلاة هل هي فرض أو نافلة؟ بل بتلك النفسية التي تقبل على الله تعالى وتحب الوقوف بين يديه وتعظِّم أمره وتأنس بشعائر عبادته. فمن وصل إلى هذه المنطقة من التعامل مع الله علم أنه لا يعامل الله **معاملة التاجر** الذي لا يوجد بشيء إلا إذا عرف ما يُقابلَه من الربح؛ بل يعامل ربه **معاملة المسافر** حين يعامل صاحبه ويراه كل شيء، وفي الحديث عند مسلم: **"اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ"**<sup>(١)</sup>.

ومن هنا نفهم أحد أسرار عناية النبي صلى الله عليه وسلم بالنِّوافل؛ فقد كان يقوم كل ليلة نصف الليل أو أقل من ذلك أو أكثر، ويجعل صلاته في ثمانِي ركعات لا تَسْلُ عن حُسْنِهنَّ وطُولِهنَّ، وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ولم يترك ذلك حتى فارق الدنيا، ولما تركه مرة قضاه في شوال، مع أن ليلة القدر توجد في رمضان دون غيره كما أنها في الليل دون النهار، وهذا إذن بِأَنَّ منافع التَّبَدِّل أوسع بِأَبَأِ من الأجر ولو عظيم.

وعلى ما نقرر فيمكن القول: إنَّ الفرائض تؤسس قاعدة العبودية أما النِّوافل فهي تتمم البُنيان وترتِّبه.

### ثانيًا: النِّوافل طريق إلى الامتيازات الأخروية:

ومن أدلة ذلك: ما روى مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعبِ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَبِيَثُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَصْوَتِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: "سُلْ" فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَاقِفَكَ فِي الْجَنَّةِ.

قال: **"أَوْغَيْرَ ذَلِكَ؟"**

فُلْتُ: هُوَ ذَلِكَ.

قال: **"فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ"**<sup>(٢)</sup>.

وفي صحيح مسلم أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لثوبان رضي الله عنه: **"عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً"**<sup>(٣)</sup>.

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٣٣٩).

(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١٢٢).

(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١٢١).

وروى أبو داود والترمذى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يَقُولُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَا وَارْتَقِ وَرَتَنْ كَمَا كُنْتَ تَرَتَنْ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَثِيلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةِ تَفْرُؤُهَا**<sup>(١)</sup>.

فهذه الدرجات العالية والامتيازات الفاخرة جعلها الله تعالى في حق المكثرين من النوافل. وإذا ضممنا هذه النصوص وما على شاكلتها إلى المعلم الفائز علمت أن **النوافل صنعة الكبار**. ومن أكثر الشواهد التي تجعل فعلها في نفسي قول الله سبحانه لنبيه وعده زكريا عليه السلام: **{وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِّيِّ وَالْإِنْكَارِ}** [آل عمران: ٤١] بعد سياقٍ طويٍ يأخذ بالأباب، فالله أباه هنا في أمرٍ سنتٍ خارقة، وحين وصاه لم يجعل الوصية على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحمل ثقال الأمور في ذات الله كما هو القريب من الأذهان؛ بل كانت الوصية بكثرة الذكر؛ إذنًا بأنّه من صنعة الكبار، وأنه يبلغ صاحبه المنازل الرفيعة.

وقل مثل ذلك أو قريباً منه في الآيات التي تناولت مريم عليها السلام بعد ذلك، **{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاضْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ افْتَنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}** [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

### ثالثاً: النوافل ترزق صاحبها الصفاء والنقاء والاتزان النفسي:

فكثرة الذكر وكثرة الركوع والسجود والتلاوة وما إلى ذلك لا يُنظر إليها على أنها مجرد شعائر تعبدية، بل إنها تقطع عن صاحبها التشوّش الإدراكي بما يُثمر تهذيب النفس وراحة القلب وما يحتاجه من الصفاء والنقاء والاتزان النفسي في هذا العالم الصالب. وهذه ثمرة عظيمة بالغة النفع والأثر.

### رابعاً: البصيرة والسداد في الأقوال والأفعال:

وهذه ثمرة عن الاتزان النفسي؛ فإن الإنسان يمارس القرارات صغيرها وكبيرها على مدار اليوم، والمكثرون من النوافل أدنى من التوفيق وأقرب من السداد.

ومن الأدلة على ذلك: حديث البخاري الذي تقدم بعده وفيه: **وَمَا يَرَالْ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحِبَّتْهُ كُنْتَ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبَصِّرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلْتَنِي لِأُغْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَهُ**<sup>(٢)</sup>.

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٤٦٦)، سنن الترمذى، رقم الحديث: (٢٩١٤) واللفظ لأبي داود.

(٢) صحيح البخارى، رقم الحديث: (٦٥٠٢).

وهذه ثمرة عظيمة، فالذى يكثُر من النوافل يحفظه ربُّه في أقواله وأفعاله وتوجهاته، فالكلام هنا عن بصيرةٍ معرفيةٍ وتوفيقٍ في اتخاذ القرار، وسداد في الحكم والفتوى والتقدير، وهذا واقعٌ ملموس.

### **خامسًا: قوة القلب والقدرة على مواجهة أعباء الحياة بجَدَّه:**

وبَيَان ذلك: أَنَّ الَّذِي يَكْثُرُ مِنَ النوافل يَعْرُفُ مِنْ أَيْنَ تَوَكُّلُ الْكَتْفِ، وَيَرِى مِنْ فَضَائِلِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمِنْ تَوْفِيقِهِ وَمِنْ فَتْحِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْمَعْانِي وَالْمَفَاهِيمِ مَا يَقُوي مَرْجِعِيَّتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَمَا يَجْعَلُ لَدِيهِ مَرْكَزٌ ثَقَلٌ دَاخِلِيٌّ لَا يَعْرُفُ لِلْضَّعْفِ أَوِ الْيَأسِ سَبِيلًا، وَيَصْبُحُ أَقْوَى عَوْدًا وَأَعْظَمُ جَلَدًا فِي تَحْمِلِ نَوَافِلِ الْحَيَاةِ بَعْزٌ وَحَزْمٌ.

إِنَّ النوافل إِذَا جَوَّدَهَا صَاحِبُهَا -وَفِي الْطَّبِيعَةِ مِنْهَا قِيَامُ الْلَّيْلِ- تَقْوِيُّ الْمَنَاعَةِ الدَّاخِلِيَّةِ بِحِيثُ يَصْبُحُ عَلَى صَلَابَةٍ لَا يَهْتَزُرُ بِأَدْنَى وَارْدٍ كَمَا لَوْ أَذَاهُ أَحَدٌ فِي نَفْسِهِ، فَالاتِّصَالُ بِالْقُوَّى يَقُويُ وَيُثْبِتُ. وَمِنْ هَنَا فَإِنَّ أَيِّ شَخْصٍ لَا قَدْمٌ لَهُ فِي التَّعْبِ لَا بَدْ وَلَا يَصِيبُهُ التَّعْبُ، وَإِذَا قَسَرَ الْعَبْدُ فِي الْعَمَلِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالْهَمْمَةِ، وَذَلِكُ حَتَّى يَدْفَعَ لِلْعَمَلِ دَفْعَةً، وَالْمَكَابِرَةُ دَاءٌ لَا دَوَاءَ.

**وَحَالِ الْقَوْلِ:** إِنَّ النوافل تثبت وتقوي وتمُنُّ السداد والبصيرة والصفاء والنقاء والاتزان النفسي والقوة في مواجهة أعباء الحياة، كما أنها طريقٌ إلى المقامات الفاضلة وإلى الامتيازات الكريمة في الآخرة.

### **وَبِمَا تَقْرَرْ وَتَسْطُرْ يَمْكُنْ أَنْ نَخْلُصْ إِلَى مَا يَلِي:**

- من أهمل أوراد التعب لا بد وأن يعاني من قدرٍ من التعب.
- إِنَّ أَحْوَجَ النَّاسِ إِلَى الْإِكْثَارِ مِنَ النوافلِ مَنْ يَتَصَدَّونَ لِلشُّعُورِ الشَّأْنِ الْعَامِ مِنْ عِلْمٍ وَدُعُوَّةٍ وَجَهَادٍ وَسِيَاسَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكِ؛ إِذَ إِنَّ هُؤُلَاءِ أَحْوَجُ النَّاسِ إِلَى السَّدَادِ وَالبَصِيرَةِ وَقُوَّةِ الْقَلْبِ وَالْجَلَدِ وَالْعَزْمِ وَالْحَزْمِ وَالصَّفَاءِ وَالنَّقَاءِ فَضْلًا عَنِ الْخَشْيَةِ وَقُوَّةِ الدِّيَانَةِ، وَهَذَا الَّذِي يَفْسُرُ وَفَرَةَ الْعِنَايَةِ بِهَذَا الْبَابِ فِي حَيَاةِ الْأَنْمَةِ كَمَا تَرَاهُ مَثُلًا فِي تَرَاجُمِ الْأَنْمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ.
- إِنَّ اخْتِرَالَ الشَّرِيعَةِ فِي الْفَرَائِضِ هُوَ تَضَخِّمٌ لِلْجَانِبِ الْقَانُونِيِّ مِنَ الدِّينِ، وَلَيْسَ الْأَحْكَامُ الشَّرِيعَةُ إِمَّا وَاجِبٌ وَإِمَّا مَحْرُمٌ، بَلْ الْوَاجِبُ دَرَجَاتٌ وَالْمَحْرُمُ دَرَجَاتٌ، وَبَيْنَهُمَا السَّنَةُ وَالْمَبَاحُ وَالْمَكْرُهُ مَعَ مَا فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ دَرَجَاتٍ.
- مَا تَقْرَرْ فِي الْفَضَائِلِ يَفْسُرُ لَنَا أَحَدَ أَسْرَارِ اِنْسَاعِ الشَّرِيعَةِ فِي التَّنْظِيرِ لِلنَّوافلِ وَتَرْتِيبِ الْأَجْوَرِ عَلَيْهَا لِيُقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهَا مِنْ تَلَقَّاءِ أَنْفُسِهِمْ، وَأَحْسَبَ أَنْ تَرْتِيبَ الْأَجْرِ الْجَزِيلَ عَلَيْهَا يَعْنِي أَنْ حَجَرَ الزَّاوِيَّةِ فِيهَا هُوَ فِي التَّرْبِيَّةِ عَلَى الْعِنَايَةِ بِمَحْبُوبَاتِ اللَّهِ، وَأَنَّ النَّفْسِيَّةَ الَّتِي تَرْسَمُهَا النَّوافلُ حَرِيًّا أَنْ يَطْلُبَهَا الْعَبْدُ وَيَحْرُصَ عَلَيْهَا وَلَوْ تَعْنِي فِي ذَلِكَ.

- إن النوافل لا تؤخر إلا إذا كانت على حساب غيرها لمن لم يتيسر له الجمع بين الأمرين، وذلك أن المنهج الإسلامي يقوم على الجمع بين الفرائض والنوافل ما أمكن.

ولهذا كان من فقه الإمام أحمد بن حنبل قوله: **"يعجبني أن يكون للرجل ركعات من الليل والنهار معلومة، فإذا نشط طولها، وإذا لم ينشط خفتها."**

وهذا ما جاء به إفتاء الفقهاء؛ فهذا ابن قدامة المقدسي رحمة الله يقول: ويستحب أن يكون للإنسان تطوعات يداوم عليها فإذا فاتت فإنه يقضيها، وساق كلمة الإمام أحمد<sup>(١)</sup>.

وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ذلك فقال: واستحب الأئمة أن يكون للرجل عدد من الركعات يقوم بها من الليل لا يتركها، فإن نشط أطالتها وإن كسل خفتها، وإذا نام عنها صلى بدلها من النهار كما كان النبي ﷺ إذا نام عن صلاة الليل صلى في النهار اثنين عشرة ركعة، وقال: **"من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل"**<sup>(٢)</sup>.

وفتح باب القضاء في النوافل فرع عن مركزيتها كما هو ظاهر.

وبالنزول إلى الميدان فإن فقه الرجل في هذا الباب يظهر في ثلاثة أمور:

- مدى قيامه بالغور القائمة بحسب القدرة وواجب الوقت.

- وأخذه بما تيسر من النوافل التي يحقق بها العبودية لله والتي يستعين بها فيما يشتغل به من الغور العامة.

- وفي قدرته على الموازنة بين الأعمال بحسب رتبها عند التزاحم والتعارض.

ومن عظم اشتغاله جدًا فلا ينبغي أن ينحط عن أمرين:

- الذكر الخاشع، وهي العبادة قليلة التكاليف عظيمة العوائد.

- صلاة ركعتين طويتين خاسعتين، ولا ينبغي أن يخلو الأسبوع من ذلك، ومن ضاق وقته بـ

يوم الجمعة جدًا كان يذهب إلى المسجد الساعة التاسعة ويطيل الصلاة.

وعلى كلٍ فإنَّ الإنسان المشغول بحراسة ثغور الإسلام يلزمُه أن يكون على بصيرةٍ في عبادة ربه، فالميزان الذي يزن به أقواله وأفعاله لا بد أن يكون شرعياً **ليخدم الدين بموازين الدين**، ولا يستثنى من ذلك كبار العلماء والمجاهدين والدعاة ومن على شاكلتهم؛ بل هؤلاء من أحوج الناس للنفس اللينة لتعظم الرحمة والخشية في قلوبهم، ويظهر حسن الخلق في تصرفاتهم وسلوكياتهم.

إن كل يوم يمضي في حياتي أكتشف فيه مركبة النوافل في رسم حدود الشخصية المسلمة، وإنني وإن عانيت التقصير في ذلك إلا أنه لا يمنعني أن أبُو بما خلصت إليه في هذا الباب.

(١) المغني لابن قدامة (٨١١/١).

(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٧٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨٢/٢٢).

وإذا كان الإنسان قريباً من رمضان فلديه فرصةٌ عظيمة في الاستدراك والانطلاق؛ وذلك لأنَّ النفوس تقبل على النواقل فيه بغير كبير جهدٍ أو عناء لأسباب ذكرتها في أوائل كتاب "أنيس المتبعد"، مما يسهل معه إعادة ضبط البوصلة وتشييٍت بعض العادات، وأكثر الناس اليوم يعانون من قدرٍ من الغفلة والتشتت والذهول، ففيأتي رمضان يرد الإنسان إلى الجادة، وما يجده من لذائذ الطاعة عبر جرعات مركزة على مدار ثلاثة أيام ييسّر له تثبيت قدمه في محراب التعبد ليبدأ العهد الطيب مع الله بعد أن طالت عن الله غيبته وطالت غربته وقدته المحاريب وأوراد الغداة والعشي قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

والله الموفق وهو المستعان وحده، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه: محمد بن محمد الأسطل.

تحريراً في يوم الثلاثاء ١٤٤٧-٨-٢٢ هـ الموافق ٢٠٢٦-١٠ م.